سحر النيل

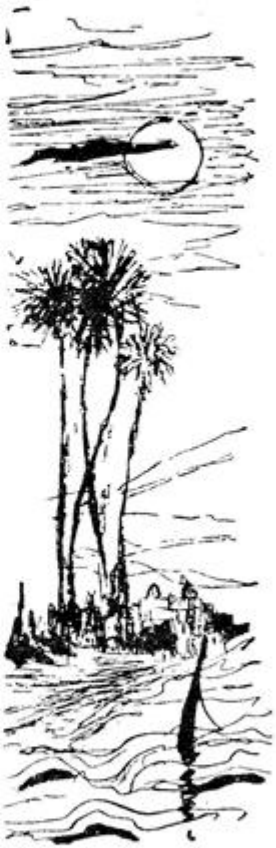

بقلم : جنفيف جيناري

ترجمة : صديق شليوب

كنت ولا أزال أخشى الوحـــدة والانفراد بين الآثار المصرية ســواء كان ذلك تحت قبة هيكل السرابيوم حيث ترقد العجول المقدسة ، أو فى ضوء القمر بين أعمدة هيـكل الكرنك ، أو فى المقابر أمام اللاعبين بالمزمار ، وبين زهـــور اللوتس .

أجـــل ، كنت دائما أشعر بخوف لا أستطيع تفسيره ، ولعلى كنت أشعر بانى لست منفردا ، بل ان هناك شهودا غير منظورين يرمقوننى بأعين نفـاذة . وكنت أحس بخوف بهم من ظهور ، هو أشد من مومياء أو شبح فرعونى ، أو ظهور أحد كهنة تلك الديانات الجهنمية ، أى ظهـــور روح خبيثـــة أو حيوان شرير .

على أننى قبلت راضيا مسرورا عندما عرض على رئيس تحرير الصحيفة التى أعمل فيها السفر الى مصر للقيام بأول تحقيق صحفى بعـــد الحرب العالمية الثانيـــة عن الحفريات بمصر ، وعن العلاقات بين الدوائر المصرية ومختلف البعثات الأجنبية . ولم أكن زرت مصر منذ عهد بعيد حين كنت مدة شتاء كامل أعمل سكرتيرا للورد ج ... وكنت بعد ذلك أوطد النفس على العودة اليها ثم اخلف ... وهكذا غادرت لندن فى صباح أحد أيام شهر ابريل سنة ١٩٤٩ قاصدا الى القاهرة مباشرة .

وفهمت عندما اتصلت فيها بالأوساط التى تستطيع تسهيل مهمتى أن التحقيق الذى سأقوم به سيكون شاقا ولن

يترك لى الوقت الكافى لأتصل بأصدقائى القدامى ولزيارة الأماكن التى لا تهم أحدا غيرى .

ولما عرضت استعدادى لزيارة جميع أماكن الحفريات قيل لى فى الحال :

ـ اذن قابل « جيمس و . جيم » .

ولم يكن هذا الاسم غريبا عنى ، ولكنه لم يذكرنى بشخص معين ، فذهبت أسأل من يكون « جيم » هذا ؟ فقيل لى انه نصف مجنون ، وانه كان طالبا فى معهد الآثار ، وانه يعيش منذ سنتين وحيدا فى قرية نيساح ببلاد النوبة العليا ، وانه نيطت به مهمة نقل الكتابة الموجودة فى هيكل صغير يرجع الى ما قبل هذا التاريخ بكثير ، وانه قد يقلب رأسا على عقب النظرية الخاصة بالفن الذى يرجع الى ما قبل عهد الأسر .

وتساءلت لماذا لا أزوره فى الحال ؟ .

واخذوا يهزأون بى ، ولكنى تمسكت برأيى . ثم تذكرت رويدا رويدا ذلك الشاب الشاحب الوجه والأسمر اللون الذى كان يدعى بهذا الاسم والذى كان يتردد على المنزل الذى كان للورد ج .. فى الفيوم حيث كانت بناته يستقبلن أصدقاءهن .

وشعرت بالغبطة والسعادة فى مساء ذلك اليوم عندما ركبت قطار الليل من محطة القاهرة . وتناولنى احساس ، بعد أن غادر القطار المحطة واخذ سمته نحو الجنوب مخترقا الصحراء كأنه يسير الى آخر العالم لأنه لا يوجد بعد نهايته عند الشلال خط حديدى آخر أو طريق . لا شىء سوى النهر والبواخر البطيئة السير . وكنت مغتبطا بأن أركب قطارا لا يصل خطه بخط آخر . واضطجعت فى سريرى ورحت فى اغفاءة اختلطت تموجاتها بهزات القطار فكأننا ، أنا والقطار ، نسير الى الفضاء المطلق ، الى نقطة النهاية .

وفى الصباح استيقظت على اسم الأقصر ينادى به على الرصيف . ثم سار القطار فغادرت السرير وفتحت النافذة وكان الحر قد أخذ يشتد ويكسو الرمل الباهت اللون لهبا تحت أشعة الشمس المنتشرة فى كل مكان . وبعد أسوان استمر القطار فى سيره بعض كيلو مترات ثم توقف .

كنا وقتئذ فى أواخر شهر ابريل ، ولم يكن كثيرا عدد الركاب المسافرين فى الباخرة التى تسير من الشلال الى وادى حلفا وتصل بين آخر محطة للسكة الحديد بمصر وأولها فى السودان ولم أجد على ظهر الباخرة فيما عدا رجالها غير جماعة من السائحين الأمريكيين . وكان عدد النساء يزيد على عدد الرجال . وكن فى ذلك الطور من النضوج الذى تحتفظ فيه النساء بروائهن . وقد لبسن ثيابا ناصعة البياض ، ووضعن قبعات من القش على رؤوسهن ، وأمسكن بأيديهن منشات من الشعر .

ووقفت الباخرة فى أبهور بناء على طلبى . وكنت قد كتبت من القاهرة أطلب دليلا يرافقنى من ابهور الى نيساح . وقد وجدته ينتظرنى ، كما كان هناك حماران قد أعدا لنا فركبناهما . ولم

بدن لدى ما يدعونى الى التوقف فى ابهور فقصدنا الى نيساح سائرين على ضفة النيل . وكنت أشعر بنشوة وانا أتعرف من جديد الى جمال تلك المناظر الخالدة فى مصر ، منظر أشجار البلح التى ترسم خطوطا فوق الارض المكسية باشعة الشمس ، وغابات اشجار الجميز الصغيرة ، وجدران منازل القرية المبنية من الطوب واعناق الزجاجات ، والعجول التى تدور حول السواقى .

وكان الدليل ، واسمه ابراهيم ، يتحدث بين حين وحين بلغة انجليزية صحيحة ، وكان يستعد لامتحان التراجمة ، كما كان قد التحق بخدمة « جيمس وجيم » فى السنة الأولى لاقامة هذا الأخير فى نيساح .

قلت له وقد ابتدأت اشعر بميل اليه :

ـ هل تعرفه على حقيقته ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا تركت خدمته ؟

وتعجبت كيف أجابنى ابراهيم فى جراة وحزم .

ـ سله عن ذلك عندما تراه .

وترددت قليلا ثم قلت .

ـ كان « جيمس و . جيم » صديقى فنظر الى وقال :

ـ لقد أحسنت صنعا اذن بمجيئك .

ولم استطع بعد ذلك أن أحمله على اضافة كلمة واحدة الى ما قاله فى هذا الصدد . وصار يرد على أسئلتى بكلمات مقتضبة ، ولا يعرض لهذا الموضوع الذى يهمنى .

وعندما وصلنا الى نيساح قصدنا الى منزل « جيم » فلم نجده . وقال لى ابراهيم انه تعود منذ عامين أن يعبر النيل فى الصباح الى حيث الهيكل ثم يعود فى المساء . ولكنه مرت ثلاثة أيام لم يعد من الهيكل الى منزله .

لذلك قررت بالرغم من أن النهار قارب الزوال ان نعبر الى الشاطىء الغربى . وكانت ساعات المساء والليل اللذيذة قد أقبلت ، وهب نسيم رطب ومنعش ... وقد احببت مياه النيل منذ عرفتها لأنها تشترك بالسر الذى يكتنف مصر . فقد كانت الآلهة فى العهود الغابرة تعبر هذا النهر الى هياكلها الطافية ذات السوارى المكللة بالأعلام ..

وعندما وصلنا الى الشاطىء الآخر ظهر لنا الهيكل بعيدا تحت أشعة الشمس الغاربة واجتزنا الطريق اليه فى ساعة من الزمن ، وقد ركب كل واحد منا حمارا .

* * *

كان الليل قد أرخى سدوله عندما وصلنا الى الهيكل فربط ابراهيم الحمارين واخذت أنادى بالانجليزية ولكن أحدا لم يجب . وكانت أشعة القمر ترسل ضياء لماعا ينعكس على عمد الهيكل وجدرانه الخارجية وتبرز رسوم الآلهة ورؤوس الأسود وأبناء آوى والقصور . ثم دخلت الهيكل يتبعنى ابراهيم . وكانت القاعة الكبيرة فارغة الا من العمد القائمة ، ولا سقف يعلوها فكأنها أذرع ممدودة الى السماء للصلاة والضراعة . وأخيرا اكتشفت « جيمس و . جيم » فى احدى الردهات الصغيرة .

ولعله كان قد رآنا نقصد الهيكل ، وسمع نداءاتنا ولكن كل مظاهر الرجل كانت تدل على التعجب والقلق . وكان واقفا أمام مكتب ملىء بالأوراق والدفاتر ينيره مصباح صغير . وتذكرته حين رأيت عينيه السوداوين وانفه الكبير كانه منقار نسر . ولكن شكله كان قد تغير ، وهذا هو أمامى الآن عارى الجزء الأعلى من جسمه ، ويلبس سروالا قصيرا من قماش قاتم اللون ، وقد ضمر جسمه

ولم أتمكن من تحمل نظراته الشبيهة بنظرات الوحش عندما يطارده الصياد حين قال :

ـ من انت وماذا تريد

وفجأة راى ابراهيم فخفت معانى الذعر البارزة فى نظراته . وقال ابراهيم :

ـ انك تعرفنى . لقد رافقت هذا السيد الانجليزى الى هنا لانه يدعى انه من اصدقائك ، بعد ان قصدنا منزلك فلم نجدك .

وأخذت الأمور تسلسل بعد ذلك واطمأن « جيمس » الى انى من ذوى النوايا الحسنة ، وحدثنى فى تلك الليلة عن أعماله واكتشافاته .

جلسنا نحن الثلاثة فى قاعة الهيكل الكبيرة . وكنت قد تعلمت فى الحرب الاخيرة أن اتعرف من منظر الرجال على مدى التعب الذى اصابهم . وقد بدا « جيمس » منهوك القوى . وقال لى انه مصاب وانه لن يعيش طويلا ، فقد استقرت رصاصة فى رئته أثناء الحرب فى بلاد الصومال سنة ١٩٤٠ وانه لم يستطع اخراجها وانها الآن تسبب له ازمات بين الفينة والفينة .

ثم ذكر لى انه كان يحب الآثار المصرية وانه فى مستهل حياته قبل أن يكون موظفا بشركة قناة السويس ارضاء لرغبة والده ، وانه بعد الحرب بحث عن اية وظيفة تعيده الى مصر ، ولقى صعوبات فى سبيل ذلك بصفته انجليزيا . ولكنه لم يلبث ان عرض عليه العمل فى هيكل نيساح فقبل فى الحال . وقد انقضى عامان وهو فى كل يوم يجتاز النهر ، وضعف بصره لفرط انصبابه على كتابات الهيكل تحت اشعة الشمس أو فى الأماكن المظلمة محاولا حل طلاسمها

فكم من ساعات طوال قضاها فى مواقف مختلفة لا يتصورها العقل حاملا بيده مصباحا وممعنا النظر فى الكتابات . بل انه كان فى بعض الاحيان مضطرا أن يمسك المصباح باسنانه .

وكانت هذه الحياة اخذت تروق له ، خصوصا بعد أن اكتشف ان الحياة لا تتطلب فى الحقيقة سوى النذر اليسير من القوت لتظل متماسكة . حفنات من الماء فى كل يوم وبعض البلح أو بعض الجراد ... والانسان يستطيع أن يعيش بعد ذلك مائة سنة بين الرمال والصخور وتحت اشعة الشمس المنبسطة على وجه الأرض ، كما كان الأمر فى بدء الخليقة .

واستطاب الحياة على هذا المنوال حتى خيل اليه أنه اكتشف العرق الذى يصل الانسان بالطبيعة والذى قطعته المدنية .

وهكذا ألقى فى النيل كل ما كان من لديه من ادوية وعقاقير ، ثم رمى كل الأوراق التى تذكره بماضيه ، وقطع كل صلة بذويه ... حتى جواز السفر الذى يضمن له حماية دولته ويدل على شخصيته تزف به الى أعماق النهر حيث تذوب أوراقه شيئا فشيئا . أليست شعوذة غريبة تلك الأهمية التى نعلقها على رقم ؟ وهل يحتاج الانسان الى رقم فى مسلسلة الجوازات ليصبح رجلا ؟ وفى تلك الأثناء استغنى « جيم » عن خدمة ابراهيم لأنه ـ اى ابراهيم ـ اصبح أقرب الاثنين الى حياة المدنية .

وانخفض صوت « جيم » شيئا فشيئا لأنه أخذ يتحدث عن اكتشافاته ، وقال أنه لم يكن يرجو فى أول الأمر أن يلازمه التوفيق ، ثم دهش عندما أتم اكتشافه .

وقص « جيم » كيف أن فلاحا وجد مرة شكلا عجيبا مصنوعا من العاج فى موضع قريب من اساس الهيكل فأخذ « جيم » يحفر فى هذا المكان حتى وصل الى الكشف عن عدد من الحجارة المقطوعة فى شكل سهام ، وأوان من الفخار الأحمر والأسود ذات أشكال عجيبة ، وفوائم مقدسة . وكانت هذه الأشياء فى مذهبه تعود الى خمسة آلاف سنة ، أو قبل ذلك . ويعتقد أن ذلك العهد كان طور الانتقال الذى قام بين عهد التجارب الحجرية وظهور ألفن فجأة فى العهد السابق للفراعنة . وهكذا صار فى مقدورنا أن نقول ان الفن الكامل الذى ظهر فى عصر الأسر الفرعونية الأولى كان نهاية منطقية لمدينة سابقة . واذن فقد وضح تاريخ الفن المصرى فى عصوره الأولى ولم يكن ظهوره المفاجىء اعجوبة كما كان يظن من قبل .

واطرق « جيم » قليلا ثم قال وهو يبتسم ابتسامته القاتمة .

ـ لعله لم يكن من حقى أن أكشف عن هذه الظاهرة التى كانت ألى الآن سرا خاصا بمصر وحدها .

فابتسمت لهذه الملاحظة ولكنه أشاح بوجهه عنى ثم استأنف حديثه فشرح كيف اكب منذ وصل الى هذا الكشف على وضع تقرير ليدل علماء القاهرة الى مدى أهمية اكتشافه . وكان الوقت يلح عليه بالاسراع لأنه كان يشعر بانحطاط قواه ... وأخيرا انتهى كل شىء وأراد أن يراجع للمرة الأخيرة تقريره على الأصول الحجرية فاقام أياما فى الهيكل لا يعود ألى منزله حتى أتم عمله .

ثم قادنى الى حيث توجد بعض الآثار التى اكتشفها فلم اكد ألقى نظرة عليها حتى دفعنى الى خارج الغرفة وأغلق الباب على ألكنوز التى تضمها ووضع المفتاح فى جيب سرواله ألقصير ثم التفت الى وقال :

ـ انه عجب حقا أن تكون قد وصلت اليوم لأنك لو أتيت غدا لما رأيتنى . فلماذا أتيت ؟ وما الذى أوحى أليك بالمجىء ؟ لا أعتقد بالمصادفة بل أرى أن الأمر كان يجب أن يكون كذلك .

فماذا وراء هذا ؟ .

وبدا عليه انه يفكر ويتألم .

ـ اللهم الا أن يكون ... ولكن من

يدرى ؟ .. لعلك جئت تحمل شرا ... أو انك اقبلت لبعض الخير . لم اكن بحاجة اليك .

ورأيت من جديد الذعر يستولى على نظراته ، كما رأيت ابراهيم يهز رأسه بطريقة خاصة لمحت فيها شيئا من الفهم وكثيرا من الشفقة .

قال « جيم » .

ـ يجب أن نذهب ، فلم يبق لدينا ما نفعله هنا . لنذهب فى الحال لأنى لا أريد قضاء ليلة أخرى فى هذا المكان . ولن اطمئن الا بعد أن أحمل وثائقى الى القاهرة واقدم تقريرى .

فاعترضت بصعوبة عبور النيل فى ساعة متأخرة من الليل . وقلت ان من الخير ان ننتظر حتى الصباح . فقال ابراهيم مترفقا .

ـ بل من الخير أن نذهب .

وركب « جيم » وابراهيم أحد الحمارين وركبت الآخر . واكتشف ابراهيم بين شجيرات القصب عند الشاطىء زورقا صغيرا ركبناه .

وكان « جيم » يحمل حقيبة صغيرة من الجلد ، ويظهر لونه أشد سوادا لما كان عليه فى ذلك الليل البهيم ، وقد ألقى على صدره قطعة من النسيج القاتم اللون . وكان الريح يصطفق على صفحات الماء ويمتزج صوته بتكسر الأمواج على جانبى الزورق . ولم ألبث أن شعرت بهدوء فى أعصابى ، بل لعلى لم أحس برقة ليالى النيل العجيبة وروعتها كما شعرت بها فى تلك الليلة .

ولعلى استسلمت لسلطان الكرى بعض الوقت لأنى استيقظت فجأة على رجة قوية انتابت الزورق ، ونحن على قيد امتار من الشاطىء واعقب هذه الرجة صوت صراخ « جيم » .

كان قد أتى بحركة طبيعية ليحفظ توازنه فانزلقت الحقيبة من يده ووقعت فى الماء ، فاندفع وراءها واخذ يسير فى النهر ويداه الى الأمام حتى بلغت المياه صدره ثم صار يهبط شيئا فشيئا حتى غمرته فاندفع ابراهيم وراءه وعاد به وقد اغمى عليه وأضجعه على ضفة النهر تحت أشعة القمر .

وانطلق الزورق يتأرجح فى النهر على غير هدى .

* * *

لا أزال عندما أذكر حوداث تلك الليلة وكيف نقلنا « جيمس و . جيم » الى منزله الحقير بنيساح أحس بالعرق يتصبب من جسمى .

وارتفعت درجة حرارته وأخذ يهذى . وكان يكلمنا بدون انقطاع ويتفوه بعبارات غير مفهومة . ولكنى أدركت بعد قليل انه يريد ان يقول اننى مسئول عن ضياع وثائقه . ولم يكن هذا الاتهام حقيقيا ولكنى شعرت بانى مجرم بعض الشىء . وقد كان فى هذا الحادث الذى حرم « جيم » من ثمار جهده الطويل جانب غير مفهوم يتمثل فيه القدر المحتوم . فلولا مجيئى فى هذه الليلة لسارت الأمور فى مجراها الطبيعى ووصل « جيم » سالما الى القاهرة وحقيبته مليئة بالأوراق والوثائق .

ومرت ساعات وأنا الى جانب سريره احدثه لأنى كنت أريد ان يفهم انى مخلص

فى عواطفى وتصرفاتى ، وانه لا ذنب لى فيما حدث . وكنت أطالع فى نظراته الهائمة معانى الحقد . ولكنى لم أعترف بالخذلان .

انحنيت على السرير وأقبلت أحدثه كما يهدهد الطفل الصغير ، واجتهدت فى أن أشرح له بأن المصادفة جمعتنا لأستطيع ان أشهد بأن العمل الذى قام به كان عظيما ، وعلى كل حال فالأصول لا تزال موجودة فى مخزن الهيكل ، ولا يتطلب من صياغة التقرير من جديد سوى أيام معدودة . وأخذ يهدأ شيئا فشيئا .

وعند الصباح حملناه على عربة من العربات التى تجرها الأبقار الى مرسى ابهور فى انتظار وصول الباخرة النيلية لنقله الى القاهرة . وكان « جيم » قد فقد وعيه .

وكانت الألفاظ التى تفوه بها فى هذيانه تتردد فى ذاكرتى ، ونظراته الهائمة المنطوية على الذعر والحقد لا تبرح مخيلتى . وكان تيارا خفيا نقل ذلك الذعر الى نفسى فصرت أرغب فى وصول الباخرة فى أقرب فرصة لأخلص من ذلك الجو الرهيب . وأخذت أفهم الشعور الذى استولى على « جيم » عندما قال :

ـ لعله لم يكن من حقى أن اكشف عن هذا .

وشعرت كأنى رازح تحت وطأة لعنة . ثم أخذت أبدل هذه الأوهام ، وأحدث نفسى بأن هذا الاكتشاف كأنه لم يكن ، وأننا جميعا ضحية مصادفة غريبة .

وأقبلت الباخرة . فشرعت أهمس « جيم » وأصرخ فى أذنيه .

ـ استيقظ فالباخرة قد وصلت .

وفتح عينيه فى هدوء ونظر الى فاذا عليهما شبه غشاوة تدل على قرب فقدان الشعور ، وفهمت أنه أشرف على الموت . وأدرت رأسه نحو الباخرة فاذا نظراته قد تغيرت فجأة ولمحت فيها بريقا يدل على الفهم . ولكنى لم أكد الحظ هذا البريق حتى انطفأ وأغمض « جيم » عينيه من جديد .

* * *

دفنا « جيمس و . جيم » بأسوان فى حديقة الدير الكاثوليكى ، وكتبت يوم وفاته رسائل الى أصدقائى بالقاهرة أنقل فيها اليهم باطناب الكشف الذى انتهى اليه « جيم » فى الهيكل القائم على مشارف صحراء ليبيا . ولم ألتفت الى ما سيقوله عنى أولئك الأصدقاء ، ولعلهم سينعتونى بالحمق . ولكنى رأيت من واجبى نحو صديقى أن افعل ذلك .

وأقمت خمسة أيام فى أسوان . وكان المقيمون فى فندق كاتاراكت قليلى العدد . وكان الماء مثلجا « فى أكوابه فى حين بلغت درجة الحرارة فى الظل ٣٨ . وكان بواب الفندق الايطالى ينتظر بفارغ الصبر سفر آخر نزيل بالفندق حتى يغلق أبوابه ويقصد الى شاطىء البحر .

وانهيت مهمتى الصحفية فى سهولة ويسر . ولم أسمع بعد ذلك شيئا عن هيكل نيساح .